﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا قال الله تعالى في الآية السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وكان سببُ ما ذُكر منَ البغي في الأرض، وإفسادِ العمران هو الإفراطُ في حبِّ التّمتُّع بما في الدُّنيا منَ الزِّينة واللَّذّاتِ ضرَبَ مثلًا بليغًا عجيبًا للحياة الدُّنيا يصرفُ العاقلَ عنِ الغُرورِ والفسادِ في الأرض، وهو عبارةٌ عن تشبيهِ زينتِها ونعيمِها في افتتانِ النّاس بها، وسرعةِ زوالها بعد تمكُّنِهم منَ الاستمتاع بها، وأنَّها بحالِ ما تُعزُّ وتَسُرُّ تضمحلُّ ويؤولُ أمرُها إلى الفناء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

الإفـراطُ في حبِّ التّمتُّعِ بما في الدُّنيا منَ الزِّينةِ واللَّـذّاتِ هو سببُ البغْيِ في الأرض

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾: أصلُ الخَلْط: تداخلُ أجزاءِ الشَّيء بعضِها في بعضٍ، وخَلطتُ الشّيءَ بغيره فاختلطَ: امتزجَ[2]، والخلطُ: الجمعُ بين أجزاء الشّيئين فصاعدًا، سواءً كانا مائعَيْن أو جامدَيْن، أو أحدُهما مائعًا والآخرُ جامدًا، والخلطُ أعمُّ منَ المزْج[3].

ومعنى ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾: أي تلقُّفُ النّباتِ للماء

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/36.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (خلط).
(3) الراغب، المفردات، ص: 293.

النّازلِ منَ السّماء، وقبولُه له، فنبتَ بذلك الماء أنواعٌ منَ النّبات مختلطًا بعضُها ببعض، والْتفَّ وتكاثفَ[1].

2) ﴿زُخْرُفَهَا﴾: الزُخرُفُ: الزّينة، وأصلُه الذّهبُ، ثم أُطلقَ على كلّ ما يُتزيّنُ به؛ لأنّه الأصلُ في الزّينة، ثم شُبِّهَ كلُّ مموَّهٍ مُزَوَّرٍ به، وكلُّ ما زوِّق وزُيّنَ فقد زُخرف، وزُخرفُ الأرضِ: ألوانُ نباتها منَ الأنوار والزّهرِ[2]، وقيل: الزُّخرف كمالُ حُسن الشّيء، وزُخرفُ القول: ما زُيّن به ورُقِش بالباطل[3].

ومعنى زُخْرُفِها: حُسنُها وبهجتُها، وزينَتُها منَ الأنوار والزَّهَر من بين أحمرَ وأصفرَ وأبيضَ، وقيل: تمامُها وكمالُها[4].

3) ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾: الزّاء والياء والنّون أصلٌ صحيحٌ يدلّ على حُسْن الشّيء وتحسينِه، فالزَّينُ: خلافُ الشَّينِ، وازَّيّنتِ الأرضُ وازدانت إذا حسّنَها عُشبُها[5]، والزّينةُ: تحسينُ الشّيء بغيره من لِبسةٍ، أو حِليةٍ، أو هَيئةٍ[6]، والزّينةُ الحقيقيّةُ: ما لا يَشين الإنسانَ في شيء من أحواله لا في الدُّنيا ولا في الآخرة[7]،، وأصلُه: وتزيّنت، فسُكّنت التاء، وأُدغمت في الزّاي، واجتلبت الألفُ ليصحَّ الابتداءُ[8].

وازيّنت الأرضُ: أي بنباتِها، وما أودع فيها منَ الحبوب والثّمار والأزهارِ[9].

4) ﴿قَٰدِرُونَ﴾: القافُ والدّال والرّاء أصلٌ صحيح يدلّ على مَبْلغِ الشّيء وكُنهِه ونهايتِه، فالقَدَرُ: مبلغُ كلِّ شيءٍ، والقضاءُ والحكمُ[10]، والقدر: بفتح فسكون: الغِنى واليسارُ، وهما مأخوذان منَ القوّة؛ لأنّ كلًّا منهما قوّةٌ، وقادرٌ: اسمُ فاعلٍ منَ القدرة، وقدرَ على الشّيء واقتدر عليه: قويَ عليه[11].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/55، والبغوي، معالم التنزيل: 4/129.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زخرف).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 2/137.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 4/129.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (زين).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (زين)، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/38.
(9) أبو حيان، البحر المحيط: 6/38.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(11) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (قدر).

ومعنى قادرون عليها: أي مُتمكِّنون ومُستمِرّون من منفعتِها مُحصِّلون لثمراتِها، رافعون لغلّتِها[1].

5) ﴿حَصِيدًا﴾: أصلُ (حصد) يدلُّ على قطع الشّيء، ومنه قطعُ الزّرعِ، وجزُّ النّباتِ بعد جفافِه واكتمالِ حالِه، والحصيدُ: الزّرعُ المحصودُ بعدما يُحصدُ، وقيل: هو الذي انتزعتْهُ الرّياحُ فطارت به[2].

وحصيداً: أي محصودةً ومقطوعةً من منابتِها، فهو الحصادُ في غير إبّانِه على سبيل الإفساد[3].

6) ﴿تَغْنَ﴾: الغين والنّون والحرف المعتلّ أصلان صحيحان، أحدُهما يدلّ على الكفاية، والآخرُ صوتٌ، فمنَ الأصل الأوّل: الغِنى في المال الذي ضدُّ الفقر، ومنه: غنيَ في المكان إذا أقامَ فيه إقامةً وعمّرهُ، كأنّه استغنى به عن غيره، ومنه المغاني: المنازلُ التي يُعمّرها النّاسُ[4].

ومعنى كأنْ لم تغنَ: أي لم تكن عامرةً، ولم تعشْ ولم تنعم، وكأنْ لم تكُنْ قبل ذلك نباتًا على ظهرها، وما كانت حسناءَ قبل ذلك[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـصـويـرٌ بـليـغٌ لحقيقةِ الدُّنيا وسُرعةِ زوالِها بمثالٍ مَـرئيٍّ لا يغيبُ عن أحدٍ

هذه الآيةُ العظيمةُ تصويرٌ تمثيليٌّ؛ حيث شبَّه اللّه فيها حالَ الحياة الدُّنيا في سرعة تَقَضّيها وزوالِ نعيمِها بحالِ نباتِ الأرض، الذي يَنمو ويزدهرُ، بسبب مطرٍ نزلَ منَ السّماء، فنبت بذلك الماءِ أنواعٌ منَ النّبات ممّا يأكلُ النّاسُ، وممّا يأكلُ الأنعامُ، وما زال هذا

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/325، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حصد).
(3) القرطبي، أحكام القرآن: 8/328، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (غني).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/56، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.

النّباتُ ينْمو ويزدهرُ حتى استوفتِ الأرضُ زينتَها وحُسنَها، وظنَّ أهلُها ظنًّا مُؤكّدًا أنّهم مُستمرّون في الانتفاع بثمراتِها متمكّنون من ادّخارِ غَلّاتِها، أتاها قضاءُ اللّه إمّا ليلًا في وقتِ غفلتِهم أو نهارًا وهم لاهون، فأهلكَها واستأصلَ ما عليها، فجعلَها مقطوعةً مقلوعةً من أصولها، كأنَّه لم يقم بها بهجةٌ وخضرةٌ نضِرةٌ تسرُّ أهلَها من قبلُ.

كهذا المَثل في جلالِه ووضوحِه وتمثيلِه لحقيقة الدُّنيا وغرورِ النّاس بها وسرعةِ زوالِها، وكما بيّنّا لكم أيّها النّاسُ مثلَ الدُّنيا وعرّفناكم حُكمَها وأمرَها، كذلك نُبيّنُ حُججَنا وأدلّتَنا لمن تفكَّرَ واعتبرَ ونظرَ، فأهلُ الفكر أهلُ التّمييزِ بين الأمورِ، والفحْصِ عن حقائقِ ما يعْرِضُ منَ الشُّبَه في الصّدور[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

تَشبيهُ الحياةِ الدُّنيا بأطوارِ الزّرعِ بيانٌ لمتاعِ الحياةِ الدُّنيا سريعِ الزّوالِ

فصلَ القُرآنُ هذه الآيةَ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ عن سابقتِها، ولم يربط بينهما بعاطفٍ؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجُملتين من كمالِ الاتّصال، واتحادٍ في المعنى؛ وجاءت هذه الآيةُ لتوضّحَ إبهامَ جملة ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في الآية السّابقةِ المُؤْذِنة بأنّ تمتّعَهم بالدُّنيا ما هو إلّا لمدّةٍ قصيرة، فبيَّنت هذه الآيةُ أنّ التّمتّعَ صائرٌ إلى زوالٍ، وأطنبتْ فشبّهتْ هيئةَ التّمتّع بالدُّنيا لأصحابها بهيئة الزّرعِ في نضارتِه، ثمّ في مصيره إلى الحصْد[2].

بَلاغةُ القصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هي أداةُ قصْرٍ، قصرٌ يتناسبُ مع سياقِه؛ لأنّه تعالى ضربَ للحياة الدُّنيا أمثالًا غيرَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/56، والحجازي، التفسير الواضح: 2/55.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/141، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.

هذا[1]، وصيغةُ القصْر؛ لتأكيد المقصودِ منَ التّشبيه وهو سرعةُ الانقضاء؛ ولبيانِ حقيقتِها، وهي أنَّها فانيةٌ عند ازدهارها، أي ليس بها صورةُ بقاءٍ قط، إنَّما حقيقتُها الفناءُ، والهلاكُ والزوالُ، ولتنزيلِ السّامعين منزلةَ من يحسِبُ دوامَ بهجةِ الحياة الدُّنيا وزينتِها؛ لأنَّ حالَهم في الانكبابِ على نعيمِ الدُّنيا كحالِ مَن يحسبُ دوامَه، وينكرُ أنْ يكون له انقضاءٌ سريعٌ ومفاجئٌ، والمعنى: قصْرُ حالةِ الحياة الدُّنيا على مشابهةِ حالةِ النّباتِ الموصوفِ، فالقصرُ قصْرُ قلْبٍ[2]، بُني على تنزيلِ المخاطبين منزلةَ من يعتقدُ عكسَ تلك الحالةِ[3].

حقيقةُ الحياةِ الدُّنيا الفناءُ كحالِ النّباتِ وأطوارِه تمامًا

بَلاغةُ التّشبيهِ المركّبِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ جرى مجرَى الأمثال[4] حيث شبَّه الله تعالى الحياةَ الدُّنيا في سرعةِ تَقَضّيها وانقراضِ نعيمِها بعد الإقبال، بحالِ نباتِ الأرض في جفافه وذهابِه حُطامًا ومصيرِه حصيدًا بعد ما الْتَفَّ وتَكاثَفَ، وزيَّن الأرضَ بخُضرته وألوانِه، وهذا منَ التّشبيه المركّبِ، وهو تشبيهُ حالةٍ مركّبةٍ بحالةٍ مركّبةٍ، ففي الآيةِ عشرُ جُمَلٍ وقعَ التَّركيبُ من مجموعها، بحيث لو سقَط منها شيءٌ اختلَّ التَّشبيهُ[5]، "وهو من أبدعِ ما يجيءُ في بابه"[6]؛ فقد تضمّن تشبيهاتٍ مفرَّقةً من أطوارِ الحالَيْن المتشابهَيْن بحيث يصلح كلُّ جزءٍ من هذا التّشبيهِ المركّبِ لتشبيهِ جزءٍ من الحالَيْن المتشابهَيْن، ولذلك أطنبَ وصفَ الحالَين منِ ابتدائه، فقوله: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شُبّه به

تَشبيهُ أطوارِ الحياةِ الدُّنيا بأطوارِ النَّباتِ من أبلغِ التّشبيهِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/228.
(2) قصر القلب: أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجَّهًا لمن يراد إعلامه بخطأ تصوّره نسبة المقصور إلى غير المقصور عليه.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/141.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.
(5) السيوطي، الإتقان: 3/144.
(6) ابن الأثير، المثل السائر: 1/387.

ابتداءُ أطوار الحياةِ من وقت الصّبا، ووجودِ الأمل في نعيم العيشِ ونضارتِه، فذلك الأملُ يُشبهُ حالَ نزول المطرِ منَ السّماء في كونِه سببَ ما يُؤمَّل منه مِن زُخرف الأرض ونضارتِها، وقولُه: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ شُبّه به طورُ ابتداءِ نضارة العيش، وإقبالِ زهرة الحياةِ، فذلك يُشبهُ خروجَ الزّرع بُعَيد المطرِ فيما يُشاهَدُ من بوارق المأمولِ، وقولُه: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ وصفٌ لنباتِ الأرض الذي منه أصنافٌ يأكلُها النّاسُ منَ الخُضروات والبُقولِ، وأصنافٌ تأكلُها الأنعام منَ العُشبِ والكلأ، وذلك يشبَّهُ به ما يَنعَمُ به النّاسُ في الحياة منَ اللّذّات، وما ينعمُ به الحيوانُ، وقولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ هو غايةٌ شُبِّهَ بها بلوغُ الانتفاعِ بخيرات الدُّنيا إلى أقصاهُ ونضوجِه، وتمامِه وتكاثُرِ أصنافه، وانهماكِ النّاس في تناوُلِها، ونِسيانِهمُ المصيرَ إلى الفناء[1].

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ جنسيّةٌ، والمعنى أنّهُ مَثَلٌ لبيان حقيقةِ الحياة الدُّنيا وماهيّتِها، وأنها سريعةُ الانقضاء والزّوال، وأنَّها بحالِ ما تُعزّ وتسرُّ تضمحلُّ، ويؤول أمرُها إلى الفناء.

حقيقةُ الحياةِ الدُّنيا وماهيّتُها أنّها سريعةُ الانقضاءِ والزّوالِ

نُكتةُ وصْفِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

وصفَ البيانُ الإلهيُّ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وليس هناك وَصْفٌ أدنى من هذا الوصف[2]، فقد سُمّيتِ الدُّنيا لدُنوّها، وقيل: لدَناءتِها[3]، ونُكتةُ ذلك: تمييزُ الحياة الآخرة الباقية عنها، والإشارةُ إلى قلّةِ نعيمِها وقِصَرِه، وسرعةِ زوالِها وانقضائِها، وكأنَّها لم تكنْ وما كان فيها نعيمٌ قطُّ.

الدُّنيا حياةٌ فانيةٌ قصيرٌ نعيمُها سريعٌ زوالُها كأنَّها لم تكنْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 13/8237.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/120.

معنى الكافِ في ﴿كَمَآءٍ﴾:

الحياةُ الدُّنيا كالماءِ يجبُ الأخذُ منهما بقَدَرٍ

الكافُ في كلمة ﴿كَمَآءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هي حرفُ جرّ يفيدُ التّشبيهَ، أي: تشبيهَ الحياة الدُّنيا بالماء النّازل منَ السَّماء، ووجْهُ الشّبَه بين الحياة الدُّنيا والماءِ من جهتين: إحداهما: أنَّ الماء إذا أخذتَ منه فوق حاجتك تضرّرتَ، وإنْ أخذتَ قدْرَ الحاجة انتفعتَ به، فكذلك الدُّنيا، والثّانية: أنَّ الماء إذا أطبقتَ عليه كَفّكَ لتحفظَه لم يحصلْ فيه شيءٌ، فكذلك الدُّنيا[1].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿كَمَآءٍ﴾:

تنكيرُ الماءِ تفخيمٌ لشأنِه فهو سَببُ الحياةِ ودوامِها

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿كَمَآءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ في سِياقِ الامتنان؛ لإفادةِ معنى التّكثير والتّفخيم لشأنِ الماء النّازل منَ السَّماء، فهو سببُ الحياة ودوامِها، أي: كماءٍ كثيرٍ أنزلناه من السّماء فاختلطَ به نباتُ الأرض.

ويجوز أن يكونَ التّنكيرُ لبيان النّوعيّة؛ أي: كماءٍ غيرِ ماءِ الأرض، وهو النّازلُ منَ السّماء، ولا تنافيَ بين الدّلالتَيْن؛ فإنّ هذا الماء ماءٌ نازلٌ منَ السَّماء، وهو كثيرٌ وفخمٌ عظيمٌ.

معنى ﴿مِنَ﴾:

الحياةُ الدُّنيا في أصلِها تشبهُ ماءَ السّماءِ في طهارتِه ومكانتِه

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابتدائيّةٌ؛ "لأنّ ماءَ المطر يتكوّنُ في طبقاتِ الجوِّ العُليا الزّمهريريّةِ عند تصاعُدِ البُخار الأرضيِّ إليها، فيصيرُ البُخارُ كثيفًا، وهو السّحاب، ثم يستحيلُ ماءً"[2].

وكونُ الماء منَ السَّماء (وهو المطر)؛ للإشارة إلى طهارة هذا الماء ومكانتِه، ولأنّه لا تأثيرَ لكسْبِ العبد فيه بزيادةٍ أو نقصٍ،

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 3/145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/398.

بخلاف ماءِ الأرض فيُنال بالآلات، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الدُّنيا تأتي بلا كسْبٍ من صاحبها، أو لأنَّ ماءَ السّماء يَستوي فيه جميعُ الخلائقِ، فكان تشبيهُ الحياة به أنسبَ[1].

معنى (أل) في: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

العَهديةُ في أل التَّعريفِ استحضارُ صورةِ السَّماءِ التي يَعرفونَها

أل في كلمة ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عهديَّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيٌّ، أي السَّماءُ المعهودةُ، وهي السَّماءُ التي ينزلُ منها المطرُ، "فالسّماء اسمٌ لأعلى طبقات الجوّ حيث تتكوّنُ الأمطار"[2]، فالمرادُ بالسّماء: جهةُ العُلوّ، أي: ما علا الأرضَ وأحاطَ بها[3]، ويُراد بالماء النّازل منَ السَّماء: المطرُ النّازلُ منَ السَّحاب، أي من جهة السَّماءِ.

معنى الفاء في: ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾:

سرعةُ ظُهورِ النَّباتِ عَقِبَ نُزولِ المطرِ إشارةٌ إلى سرعةِ نماءِ الحياةِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾عاطفةٌ، ومعناها: التّعقيبُ، والفوريّةُ بالنّظر إلى المبدأ، ولكنْ كلٌّ بحسَبِه، أي: ابتداءُ الاختلاطِ عقيبَ الإنزال، وإن كان منتهاه بزمانٍ طويلٍ[4]، وفي هذا إشارةٌ إلى سرعة ظهورِ النّبات عقِبَ نزولِ المطر، ويُؤْذِنُ بسرعة نماء الحياةِ في أوّل أطوارِها[5].

معنى الباءِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

دَلالةُ الباءِ على السّببيّةِ والمصاحبةِ يُنبئُ بأنَّ الماءَ سببُ الحياةِ

تحتملُ الباءُ من ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ معنيَيْن:

الأوّل: السَّببيَّةُ، والمعنى: فاختلط بسببِه نباتُ الأرض، أي التفّ النّباتُ، وتشابكَ بعضُه ببعضٍ بسبب الماءِ.

الثّاني: المصاحبةُ، والمعنى: فاختلط النّباتُ بالماء اختلاطَ

(1) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 791، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/55.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/398.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 12/92.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.

الذّرّات بالذّرّاتِ، فجاورَهُ وقارنَه[1]، ومخالطتُه له: تشبّثُه به، وتلقّفُه إياه، وقبولُه له؛ لأنَّه يجري له مجَرى الغذاءِ[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

(أل) في كلمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ جنسيّةٌ، أي جنسُ الأرض، والمعنى: اختلط بماء المطر كلُّ نباتِ الأرض، ويمكن أنْ تكون عهديَّةً، أي: الأرضُ التي يعرفونها وينبتُ فيها النّبات، أي: التي لها أهليّةُ الإنباتِ[3].

معنى (مِنْ) في: ﴿مِمَّا﴾:

دَلالةُ (مِنْ) بين البيانيّةِ والتّبعيضيّةِ

(من) في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ﴾: حرفُ جرٍّ، تحتملُ وجهَيْن: الأوّل: بيانيّةٌ؛ لبيان نتيجةِ الاختلاط[4]؛ لأنَّه لمّا كان النّباتُ ينقسمُ إلى مأكولٍ وغيرِه، بيّن بـ (مِن) أنَّ المرادَ أحدُ القسمَيْن، فقال: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾، كالحبوبِ والثّمارِ والبقولِ، ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾، كالحشيشِ وسائرِ ما يُرعَى[5].

الثّاني: تبعيضيّةٌ؛ أي: بعضُ هذا النّباتِ هو مما يأكلُه النّاس؛ كالبقول والفواكهِ وغيرِها، وبعضُه ممّا تأكلُه الأنعامُ؛ كالحشائش والأعشابِ وغيرِها.

معنى (ما) في: ﴿مِمَّا﴾:

لكلٍّ منَ النّاسِ والأنعامِ حَظٌّ في نعيمِ الحياةِ بمقدارِ نطاقِ حياتِه

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ﴾ اسمٌ موصولٌ، وجملةُ ﴿يَأْكُلُ﴾ هي صلتُه، وقد أفاد عمومَ ما يأكلُه النّاس والأنعامُ، والمعنى: فاختلط به نباتُ الأرض من كلِّ الذي يأكلُه النّاسُ والأنعامُ، فإنَّ لكلٍّ منَ النّاس والأنعامِ حَظًّا في نعيمِ الحياة بمقدارِ نطاقِ حياته.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/111، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/37.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/433.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/37.

بَلاغةُ حذْفِ المفعول في ﴿يَأۡكُلُ﴾:

كلُّ نباتٍ يأكلُه النّاسِ والأنعامُ له حظٌّ من ماء السّماءِ

إنَّ حذْفَ المفعول به في ﴿يَأۡكُلُ﴾ يُؤْذِنُ بالعموم، فيعمُّ كلَّ ما يأكلُه النّاسُ والأنعامُ من نبات الأرضِ، وهذا أبلغُ من ذكرِ المفعول به؛ لأنَّه يُؤدّي إلى تخصيصِ بعضٍ ممّا يأكلُه النّاس والأنعام دونَ بعضٍ، وهذا التّخصيصُ يتنافى مع حقيقةِ أنَّ كلَّ نباتٍ يأكلُه النّاسُ والأنعام هو ممّا اختلط به ماءُ السّماء.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَأۡكُلُ﴾:

تشبيهُ الحياةِ الدُّنيا بصورةٍ متجدّدةٍ مُتكرّرةِ الحدوثِ أبلغُ في الاعتبارِ

عبّرَ القرآنُ بالفعل المضارعِ في قوله: ﴿يَأۡكُلُ﴾ لإفادة استمرارِ حدوثِ وتجدُّدِ فعلِ الأكل، وفي ذلك صورةٌ متجدّدةٌ متكرّرةٌ يراها النّاسُ في كلّ وقتٍ، وهي أكلُ النّاس والأنعام من نبات الأرضِ الذي يختلطُ بماء السّماء، ويَزهو ويَنضجُ، ثمّ يصبحُ حصيدًا كأنّه لم يكن، فيكونُ تشبيهُ الحياة الدُّنيا في هذه الصّورة أبلغَ؛ لكونِها مُتجدّدةً مُستمرّةَ الحدوث باستمرارِ أكلِهم وتكرّرِه.

معنى(أل) في﴿ٱلنَّاسُ﴾ و﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾:

ضربُ المثلِ بصورةٍ مُشاهَدةٍ لجميع النّاسِ أدْعَى إلى التّفكّرِ

(أل) في كلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ وفي كلمة ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، والمعنى أنّ النّباتَ الذي اختلط بماء السّماءِ يأكلُ منه كلُّ النّاس وكلُّ الأنعام، وفي ذلك مزيدٌ منَ الامتنان، ويكونُ تشبيهُ الحياة الدُّنيا بدورة الماء والنّباتِ في مُتناوَلِ جميع النّاس، ومشاهَدًا من خلال ما يأكلونَه أو تأكلُه الأنعامُ.

عِلّةُ عطفِ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ على ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

اغترارُ النّاسِ بالدُّنيا والسّعْيُ وراءَ سفاسِفِها يجعلُهم كالأنعام التي لا تعقلُ

عطَفَ البيانُ الإلهيّ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ على ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ لأمور؛ منها: مزيدُ الامتنان، وبيانِ أنّ نِعَمَ اللّه تعالى شاملةٌ، فكما وفّرَ للإنسان الغذاءَ من هذا النّبات، كذلك وفّره للأنعام التي سخّرها اللّه تعالى له، والإشارةُ إلى أنَّ الدُّنيا لهم

وللأنعام، ولكنّ اللّه فضّلَهم عليها بالعقل، فيجبُ ألّا يغترّوا بالدُّنيا فيصبِحوا كالأنعام بل أضلَّ، وأنْ يعرفوا ما وراء هذه الحياةِ، وأنّهم لم يُخلقوا عبثًا[1].

والإشارةُ إلى تشبيهِ معالي الأمور من نِعَمِ الدُّنيا التي تسْمو إليها الهممُ العوالي بالنّبات الذي يقتاتُه النّاس، وتشبيهِ سفاسفِ الأمور بالنّبات الذي يأكلُه الأنعامُ، ويتضمّن تشبيه الذين يجنَحون إلى تلك السّفاسف بالأنعام، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ [محمد ﷺ: 12][2].

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وبَلاغةُ الحذْفِ الذي تضمّنَتْه:

بينَ مبدأ ظُهورِ لَـذّاتِ الحياة وبـين بلـوغِـها مُنتَهاها مراتبُ جـمّـةٌ وأطـوارٌ كثيرةٌ

عبّرَ القرآن الكريم بحرف ﴿حَتَّىٰٓ﴾ التي تفيدُ انتهاءَ الغاية، وهو غايةٌ شبَّهَ بها بلوغَ الانتفاعِ بخيراتِ الدُّنيا إلى أقصاه، وهذا التّعبيرُ يُؤْذنُ بأنَّ بينَ مبدأ ظُهور لذّات الحياة، وبين منتهاها مراتبَ جمّةً وأطوارًا كثيرةً، فذلك طويَ في معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾[3]، لأنَّ (حتى) تحتاجُ أن يكون الفعلُ الذي قبلها مُتطاوِلًا حتى تصحَّ الغايةُ، أو يُقدّرُ قبلَها محذوفٌ؛ أي: فما زال ينمو ويزدهرُ ويزْهو حتى إذا أخذت...، والمعنى: استوفتْ واستكملتِ الأرضُ زُخرفَها منَ النَّبات، وتمَّ سرورُ أهلِها بها، أو يكونُ المعنى: فدامَ اختلاطُ النّبات بالماء حتى إذا..[4].

معنى ﴿إِذَآ﴾ وفائدةُ الشّرطِ بها:

دَلالـةُ الـشّـرطِ بـ(إذا) تُفيدُ حَقّيةَ وقطعيّةَ ما مَثّلَ الله به

استعمل القرآنُ ﴿إِذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾، وهي ظرفٌ لِما يُستقبل منَ الزمان، وتتضمّنُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3550.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/38، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/55.

معنى الشّرط، وتختصُّ بالجملة الفعليّةِ، وتحتاجُ إلى جوابٍ، ومن شرطِها أنْ يكونَ التّعليقُ بها على أمرٍ معلومٍ مقطوعٍ بوقوعِه[1].

ولذا فإنّ فائدةَ الشَّرط بها الدّلالةُ على حقّيّةِ ما مثّلَ اللّه به، واستحضارُ صورةِ هذا المثالِ الصّادق؛ لتكونَ بمنزلة الشّيءِ الحاضرِ المشاهَدِ، وهذا أدْعَى للاعتبار بالمثل.

بَلاغةُ الجُملةِ الشّرطيّة وفائدتُها وجوابُها:

النّقصُ بعدَ الاكتمالِ في الحياة الدُّنيا سُنّةُ الله التي لا تتبدلُ

تتجلَّى بلاغةُ الجملةِ الشّرطيّةِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾، وجوابُها: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾؛ إذ إنَّ فائدةَ الجملةِ الشّرطيَّةِ هو تعليقُ وقوعِ أمرٍ على أمرٍ آخرَ، وهو أنّ الأرضَ إذا بلغت غايتَها منَ الزّينة والحُسْنِ والبهجةِ لابدّ وأنْ تعودَ حصيدًا كما كانت من قبل، وهذا هو حالُ الحياة الدُّنيا التي شبّهها اللّه بها، فإذا جمعَ الإنسانُ منها، وظنَّ أنَّه قد نال به مقصودَه أتاهُ الموت كأنَّه لم يكنْ ولم يَعِشْ في هذه الحياة، وهذه سُنّةُ اللّه التي لا تتبدّلُ ولا تتغيّرُ.

نُكتةُ المجازِ في إسنادِ الأخذِ والتّزيّنِ للأرض:

إسنادُ الأخذِ إلى الأرض مبالغةٌ في إظهارِ زينتِها وكأنّها تناولتْها عن إدراكٍ وعقلٍ

إسنادُ الأخذِ إلى الأرض في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾، هو مجازٌ لُغويٌّ؛ إذ نُسبَ للأرض إدراكٌ وليس لها عقلٌ أو إرادةٌ؛ إذِ الأخذُ هو التّناوُلُ والإمساكُ باليد، وهذا المجازُ لا يكاد يظهرُ لشيوعِ استعمالِه حتى صار كالحقيقة، فالعربُ يُطلقون على ذلك التّناوُلِ اسمَ الأخذِ.

وفي هذا المجاز من إسناد الأخذِ إلى الأرض مبالغةٌ في إظهارِ بهجةِ الأرض، ونضارتِها وزينتِها وزُخرفِها، وكأنّ الأرضَ هي التي تناولت زينتَها عن إدراكٍ وعقلٍ.

(1) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84.

بَلاغةُ الاستعارةِ في تزيُّنِ الأرضِ:

بيانُ الاستعارةِ تشبيهَ الأرضِ بعروسٍ تزيّنت بالحُليّ والثّيابِ

جُعلتِ الأرضُ آخذةً زُخرفَها متزيّنةً، قال تعالى: ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾، وذلك على جهة التّمثيل بالعروس إذا أخذت الثّيابَ الفاخرةَ من حُليٍّ وألوانٍ، فاكتستْ وتزيّنتْ بأنواع الحُليّ، فاستُعير الأخذُ وهو التّناولُ باليد لاشتمال نباتِ الأرض على بهجةٍ ونضارةٍ وأثوابٍ مختلفةٍ، واستُعير لتلك البهجةِ والنّضارة والألوانِ المختلفةِ لفظُ الزُّخْرُف وهو الذّهبُ، لمّا كان منَ الأشياء التي تبعث البهجةَ والسّرورَ في النّفوس، وكأنّ هذا الأمرَ كلَّه فعلُ عاقلٍ حريصٍ على منتهى الإبداعِ والإتقانِ فيها، وهذا من بديع الاستعارة[1]، التي أعطتْ تصويرًا للمعنى وكأنّ القارئَ يَنظرُ إلى مشْهدٍ بارزٍ أمامَه.

معنى الواو في: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾:

بهجةُ الدُّنيا وزُخرفُها يَبعثُ على الاغترارِ بدوامِ مَلذّاتِها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾، والمعنى: أنَّه بعد أنْ أصبحتِ الأرضُ ناضجةَ الثّمارِ، دانيةَ القُطوفِ، ظنَّ أهلُها ظنًّا مؤكَّدًا جدًّا[2] أنّهم قادرون على التّمتّعِ بثمراتِها مُتمكّنون من ادّخار غَلّاتِها.

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾:

استعارةُ لفظِ القُدرةِ أبلغُ في الدّلالةِ على تمكّنِ أهلِها منها

أطلقَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ القُدرة في قوله: ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ وأراد به التّمكّنَ منَ الانتفاع ودوامِه، وذلك على وجْهِ الاستعارة، والمعنى: وظنَّ أهلُها أنّهم مُستمرّون على الانتفاع بها محصِّلون لثمراتِها[3]؛ وذلك لأنَّ لفظَ القُدرة فيه معنى القوّةِ، وذلك أبلغُ في إيصال معنى تمكُّنِ أهلِها منَ الانتفاع بها وتحصيلِ ثمراتِها وغَلّاتِها.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/340، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/38، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/433.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.

نُكتةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة: ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾:

ظـنُّ الكـافـريـن باستمرارِ نَعيمِ الدُّنيا ولذّاتِها غُرورٌ وضَلالٌ

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أنّ وما بعدها سدّتْ مسدَّ مفعولَيْ ﴿وَظَنَّ﴾، والعُدولُ عن قُدرتِهم إلى أنّهم قادرون أفادَ ثباتَ قُدرتِهم لا نسبةَ القُدرة إليهم فقط، وأفادَ أنّ ظنَّهم كان ظنًّا مؤكَّدًا جدًّا[1]، فالتّعبيرُ بالجملة الاسميّةِ فيه مزيدُ بلاغةٍ؛ إذ دلّتْ على الثّباتِ والاستمرارِ، أي: ثباتُ قُدرتِهم على الأرض، والانتفاعِ بها، وتحصيلِ ثمراتِها، وغاب عنهم - لجهْلِهم - علْمُ العاقبةِ؛ ومن ظنّ أنّه مستمرٌّ في الانتفاع بها لم يحسبْ حسابًا لتلَفِها، وكذلك المتمسّكُ بالدُّنيا إذا ظنّ أنّه مستمرٌّ في العيش بنعيمِها لم يحسب حسابًا للموت، فيأتيه الموتُ بغتةً فيَسلبُ ما كان فيه من نعيم الدُّنيا ولذّاتِها، وفي هذا إشارةٌ إلى غرورِهم وضلالِهم.

فائدةُ الإضافة: ﴿أَمْرُنَا﴾:

إسـنـادُ الأمـرِ إلى الـعـظـيـمِ سُبحانه إنـذارٌ بـقـوّةِ أخـذِه لـلـمُـنـشـغِـلين بالدُّنيا

أضاف البيانُ الإلهيُّ الأمرَ إلى ضمير العظَمةِ في قوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾؛ لتهويلِ الأمر وتربيةِ المهابةِ، وإدخالِ الرّوعة في قلوب المنشغِلين بالدُّنيا وزُخرفِها، والإنذارِ بالتّهديد؛ لإرادة الاستئصال، وللتّأكيدِ على أنّ أمره ﷻ لا يقبلُ التّخلّفَ قطّ[2].

معنى ﴿أَوْ﴾:

زوالُ نَـضـارةِ الحياةِ مُتوقّعٌ في أيّ زمـنٍ منَ الأزمنةِ

أفادت ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ عدّةَ معانٍ، منها: التّرديدُ في الوقت؛ لإثارة التّوقُّع من إمكان زوالِ نضارةِ الحياة في جميع الأزمنةِ؛ لأنَّ الشّيءَ الموقَّتَ بمعيّن من التّوقيت يكونُ النّاسُ في أمنٍ من حلولِه في غير ذلك الوقتِ[3]، وهذا التّرديدُ هو التّرديدُ بالنّسبةِ إلى وقوعِ الشّيءِ في نفسِ الأمر، لا بالنّظر إلى المتكلّمِ العالمِ بالمغَيَّباتِ والخَفيّاتِ[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/433.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3551.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/434.

والإبهامُ وإخفاءُ الأمر على السّامع مع علْم اللّه به، فهو سُبحانه يعلمُ متى يأتيها أمرُه، ولكنَّه أخفاهُ على النّاس ليأتيَهم فجأةً[1].

والتّنويعُ؛ لأنّ بعضَ الأرض يأتيها أمرُه تعالى ليلًا، وبعضَها نهارًا، ولا يخرجُ كائنٌ عن وقوعِه فيهما[2].

نُكتةُ التّنكيرِ في: ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾:

إبهامُ وقتِ نُزولِ أمرِ اللّه أدْعَى إلى الاستِعدادِ له وعدمِ الغفلةِ

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ (لَيْلًا) و(نَهارًا) في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾؛ لإفادةِ الإبهام؛ أي: إبهام الوقتِ الذي يأتي به أمرُ اللّه، وفي أيّ جزءٍ من أجزاء اللّيل أوِ النّهار يكونُ، وذلك أدْعَى وأبلغُ في إثارةِ التّخويفِ والتّهويلِ والاستعدادِ وعدمِ الغفلةِ.

فائدةُ تقديمِ اللّيلِ على النّهارِ في الآية:

نـزولُ الهلاكِ في اللّيل أكثرُ مُفاجأةً وأنسبُ مع وقت غفلَتِهم

قُدِّم اللّيلُ على النّهار في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾؛ لأنَّ اللّيلَ وقتُ ظلامٍ وسكونٍ، والغالبُ في اللّيل أنْ يكونَ الإنسانُ غافلًا نائمًا لا يتوقّعُ نزولَ العذاب، أوِ الهلاكِ فيه، وإتيانُ العذاب في هذا الوقت يكونُ بَغْتةً، والبَغْتَةُ تكونُ أهولَ وأفظعَ وأفزعَ، وأكثرَ مفاجأةً في وقوعِه، وأشدَّ وأصعبَ؛ إذ لا يتّسعُ لتدارُكِه، بخلاف أنْ يكونَ قدِ استعدَّ له، وتهيَّأَ لحلوله، أو متنبِّهًا فيسعى لتداركه[3].

معنى الفاء في: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾:

إيذانٌ بسرعةِ إمضاءِ أمرِه سُبحانه وبسرعةُ انقضاءِ الدُّنيا وزوالِ نعيمِها

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ عاطفةٌ ومعناها: التّعقيبُ الذي يُشعر بهلاك النّبات، وجعْلِه حصيدًا وانتهائِه إلى تلك الحال عَقبَ إتيان أمرِ اللّه، وفي معنى الفوريّةِ في الفاء إشارةٌ إلى سرعة إمضاءِ أمرِ اللّه، فإذا أراد اللّه سُبحانه أمراً فإنَّما يقول له كن

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/573.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/39.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/69.

فيكون، وفيه إيذانٌ بسرعةِ انقضاءِ الدُّنيا، وزوالِ نعيمِها بعد بهجتِها ونضرتِها متى أتاها أمرُ اللّه.

بَلاغةُ المجازِ والاستعارةِ في: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾:

التّعبيرُ عن تلَفِ الـزّرعِ بحصيدِ الأرضِ بلاغةٌ في التّصويرِ وكأنَّ الآفـةَ حصدَتْه قبل أوانِه

الحصيدُ هو الزّرعُ المقطوعُ من منابتِه، وقد احتوت هذه المُفردةُ على المجازِ العقليّ، وعلى الاستعارةِ؛ أمّا المجازُ العقليُّ فهو الإخبارُ عنِ الأرض بحصيدٍ، وإنّما المحصودُ نباتُها[1].

وأمّا الاستعارةُ ففي التّعبير بحصيدٍ عنِ التّالفِ استعارةٌ؛ إذ جعلَ ما هلكَ منَ الزّرع بالآفة قبل أوانِه حصيدًا، وكأنَّ الآفةَ حصدَتْه قبل أوانِه[2]، لعلاقةِ ما بينهما منَ الطّرحِ على الأرضِ.

وقيل: يجوزُ أن تكونَ تشبيهًا بغير الأداةِ، والتّقديرُ: فجعلناها كالحصيدِ[3].

معنى ﴿كَأَن﴾، وفائدةُ التّشبيه:

المـبـالـغـةُ في تـصـويـرِ تـلَـفِ الأرضِ وهـلاكِ زرعِـهـا حتى كـأنَّـها لـم تكن عامرةً من قبلُ

﴿كَأَن﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ مخفّفةٌ من كأنّ، واسمُها ضميرُ الشّأن تقديرُه: كأنَّها؛ وجملةُ ﴿لَّمْ تَغْنَ﴾ خبرُها، أي: كأنّ ثمار تلك الأرضِ وزروعَها لم تغن بالأمس، ومعنى (كَأَنْ) التّشبيهُ وتقريبُ الصّورة، أي إنّ حالَ الأرض عندما أتاها أمرُ اللّه، وأصبحت حصيدًا بعدما كانت مُزخرفةً ومُزيَّنةً بالنّبات، كحال التي لم تكن عامرةً قبلَ ذلك بالأمس، ولم تكن تلك الزّروعُ والنّباتُ على ظهر الأرض نابتةً قائمةً، وفائدةُ هذا التّشبيهِ ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ هو المبالغةُ في تصوير التّلفِ والهلاكِ، وتأكيدٌ لهلاكها واستئصالِ ما عليها من نباتٍ بصورة سريعةٍ حاسمةٍ حتى كأنّها لم يقُم بالأرض بهجةٌ وخضرةٌ نضرةٌ تسرُّ أهلَها من قبلُ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/114.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/39.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/39.

معنى الباءِ في ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾:

الباءُ في كلمة ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ للظّرفيّةِ، أي بمعنى (في)، والمعنى: كأنْ لم تَغْنَ في الزّمن الماضي القريبِ.

معنى (أل) في ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾:

لِسُرعةِ زوال الدُّنيا ومُتعتِها كأنّها لم تكن موجودةً منذُ وقتٍ قريبٍ

اختلف العلماءُ في لام ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ على قولَيْن:

الأوّل: مزيدةٌ لتَمليةِ اللّفظ مثل التي في كلمة (الآن)، والأمسُ هو اليوم الذي قبل يومك.

الثاني: عهديَّةٌ؛ أي: اليومُ المعهودُ بين المخاطَبين، وَلِيَهُ يومُك أم لا[1].

ولكنْ على كلا الرّأيين ليس المرادُ بالأمس في الآية خصوصَ اليوم الذي قبل يومك، وإنّما المرادُ الوقتُ الماضي القريبُ، فالأمس مجازٌ عنِ القرب، أي: جعلناها حصيدًا حتى لكأنَّها لم يكن بها منذُ وقتٍ قريبٍ الزَّرعُ النّضيرُ، والنَّباتُ البهيجُ، والنَّخلُ الباسقُ، والطَّلعُ النّضيدُ[2]، أوِ المرادُ بالأمس الوقتُ المعهود، وهو الوقتُ الذي ازّيّنت فيه[3].

معنى الكاف في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وفائدةُ التّشبيهِ:

تشبيهُ حالِ النّباتِ بحالِ الدُّنيا من الآياتِ الدّالّةِ على وَحدانيةِ الله وقُدرته

الكافُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ حرفُ جرٍّ يُستعملُ للتّشبيهِ، وفائدةُ التّشبيه قصدُ الحضِّ على التّفكير والاعتبارِ أي: كهذا المثلِ في وضوحِه وبيانِه لحال الحياة الدُّنيا، وقِصَرِ مدّةِ التّمتّع بها نفصّلُ الآياتِ ونضربُ الأمثالَ الدّالّةَ على وَحدانيتِنا وقُدرتِنا لقوم يَستعملون عقولَهم، فيُحسنون التّفكيرَ والتّدبّرَ في ملكوت السّماوات والأرض[4].

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/208.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/56.
(3) السامرائي، معاني النحو: 2/208.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/56.

نُكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ (ذلك):

الإشارةُ بالبعيدِ للتّنبيهِ على عِظَمِ المثَلِ في إثارةِ التّفكُّرِ

استعملَ اسمَ الإشارة (ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ لإفادتِه التّنبيهَ على عظمِ المثَل الذي أتى به، وهو تشبيهُ الحياة الدُّنيا بنباتِ الأرض، فاختارَ ما يُشار به إلى البعيدِ، مع أنّ المرادَ قريبٌ وهو المثَلُ الواردُ في الآية؛ وذلك للدّلالةِ على تفخيمِ وتعظيمِ وأهمِّيَّةِ تفصيل الآياتِ، وضرْبِ الأمثال في الاعتبارِ والتّفكّر.

غرَضُ إسنادِ التّفصيلِ إلى ضمير العظَمةِ:

آياتُهُ عظيمةُ الدّلالةِ على علْمِه وقُدرتِه وإتقانِ صُنعِه

أسندَ البيانُ الإلهيُّ نونَ العظمةِ إلى فعل (فصّل) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ إشارةً إلى عِظم آياتِ الله، أي نبيّنُ الدّلالاتِ كلَّها الدّالّةَ على عموم العلْمِ والقُدرةِ، وإتقان الصُّنع، فهذه آيةٌ منَ الآيات المبيَّنةِ، وهي واحدةٌ من عموم الآيات[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾:

الآياتُ القُرآنيّةُ والتّكوينيّةُ أو عِبَرُ الأمثال تنبيهٌ وباعثٌ على التّفكّر في غُرورِ الدُّنيا

(أل) في: ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ تحتمل أن تكون جنسيّةً، فتشملُ الآياتِ القرآنيّةَ والآياتِ التّكوينيّةَ، وتحتملُ أنْ تكون أل العهديّةَ، والمعهودُ فيها حضوريٌّ ذِكْريٌّ يعودُ إلى المعنى المستفادِ منَ المثَلِ الوارد في الآية، وهو ضرْبُ مَثَلِ الحياة الدُّنيا بالنَّبات والزّرعِ الذي ذُكر عِظةً وتنبيهًا لمن تفكّرَ[2]، والمعنى: كذلك نفصّلُ المواعظَ والعلاماتِ التي تدلّ على غرور الدُّنيا وزوالِها.

معنى اللّام في ﴿لِقَوْمٍ﴾:

ضربُ الأمثالِ وتفصيلُ الآياتِ والأدلّةِ لأجْلِ التّفكّرِ والاعتبارِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هي لامُ الأجل[3]، وهي اللّام المبيِّنةُ سببَ الفعلِ الذي قبلها، بمعنى كي أو لأجل، أي: أنّ الله فصّل الآياتِ، وبيّن الحُججَ والأدلّةَ لأجل التّفكّرِ والاعتبارِ بها، فمن لم ينتفعْ بالآيات فليس من أهلِ التّفكّرِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/30.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿لِقَوْمٍ﴾:

تـنـكـيرُ الـقـومِ الـمـتـفـكّـريـن تفخيمٌ وتشريفٌ لمداومَتِهم على التّفكّرِ والنّظرِ

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿لِقَوْمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لإفادة معنى التّفخيم والتّشريف، وذلك في سياقِ المدحِ للمتفكِّرين المعتبِرين بالآيات، أي: إنَّ في ذلك المثَلِ وأشباهِه آياتٍ دالّةً على وَحدانية الله وقُدرتِه لأهل التّفكّرِ الذين يُعمِلون عقولَهم، وفيهم قوّةُ المحاولةِ لِما يريدون منَ الاستمرارِ في التّفكّر والوصولِ إلى الحقائقِ.

دَلالةُ التّعبيرِ بـ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

الـتّـفـكّـرُ من أشرف المنازلِ، فـعِـظـمُ آيـاتِ الله لا يُدركُها إلّا الدّائمون على التّفكّرِ

لفظُ التّفكّرِ في قوله تعالى: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يدلُّ على التّأمّلِ والنّظرِ وإعمال الفكرِ، وهو تفعّلٌ مشتقٌ منَ الفكر، وقد اختار البيانُ الإلهيُّ لفظَ التّفكّر؛ تشريفًا لمنزلةِ التّفكّر، وحثًّا للتّسابقُ إلى هذه الرّتبة[1]؛ لأنّهم همُ المنتفعون بتَفصيلِ الآياتِ، قال الطّبريّ: "وخصَّ به أهلَ الفكر؛ لأنّهم أهلُ التّمييز بين الأمور، والفحْصِ عن حقائقِ ما يَعرِضُ منَ الشُّبَه في الصّدور"[2].

وفيه تعريضٌ بأنّ الذين لم ينتفِعوا بالآيات ليسوا من أهل التّفكّر، ولا كان تفصيلُ الآيات لأجلِهم[3].

واختارَ صيغةَ المضارع؛ لدلالتِها على الاستمرارِ والتّجدّدِ، أي لا بدّ من دوام التّفكّرِ في آيات الله، فعِظمُ هذه الآياتِ لا يُدركُ إلّا بالاستمرارِ في التّفكّر فيها، بل يستلزمُ دوامَ التّفكّرِ فيها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخلْطُ والمزْجُ:

الـخـلْـطُ أعـمُّ مـنَ الـمـزجِ، إذِ الـمـزْجُ يختصُّ بالسّوائلِ

هناك تقاربٌ دَلاليٌّ كبيرٌ بين المزْجِ والخلْطِ إذ يُعرّفُ كلٌّ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/115.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/57.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.

منهما بالآخرِ في المعاجم اللّغويّةِ، فالخلطُ: المزجُ، والمزجُ: الخلطُ[1].

إلّا أنَّ هناك بعضَ الفروقِ الدّلاليّةِ الدّقيقةِ بين اللّفظَين التي يمكنُ لحظُها من خلال الاستعمالِ القرآنيِّ:

استعملَ القرآنُ الكريمُ لفظَ (مزَج) في ثلاثة مواضعَ كلُّها جاءت مع الشَّراب[2].

بينما استعملَ لفظَ (خلَطَ) مع الأشياء الصّلبةِ، ومع الصّلبِ والسّائلِ، ومع الأشياءِ المعنويّةِ[3].

فالخلطُ: هو الجمعُ بين الشّيئين فأكثرَ، سواءً كانا مائعَيْن أو جامدَيْن، أو أحدُهما جامدًا والآخرُ مائعًا[4]، وكذلك في الأشياء المعنويّةِ، سواء كانتِ العناصرُ المختلطةُ من جنسٍ واحد، أو من أجناسٍ مختلفةٍ.

بينما المزجُ: هو خلطُ مائعَيْن مختلفَين أو أكثرَ بعضِهما ببعض، وجعْلُهما شيئًا واحدًا، أو خلطُ مادّةٍ صلبةٍ بسائلٍ بحيث يصبحُ الخليطُ متجانسًا، أي لا بدّ أن يكون أحدُ عناصره مائعًا[5].

إذن: الخلطُ أعمُّ منَ المزج، كما أنّه يمكنُ الفصلُ بين عناصرِ الأشياء المختلطةِ، ولا يمكنُ الفصلُ بين عناصر الأشياء التي امتزجَتْ[6].

الزُّخْرفُ والزّينةُ:

يوجدُ تقاربٌ دلاليٌّ بين لفظ الزُّخرف والزّينة، فكلاهما يَشتركُ في معنى تحسينِ الشّيء وتجميلِه، كما أنّ الزُّخرفَ يُعرّفُ بالزّينة،

الـزّيـنـةُ أعـمُّ منَ الـزُّخـرفِ إذِ الزُّخْرفُ هو حالةُ اكتـمالِ الزّينـةِ وتمامِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (خلط)، (مزج).
(2) وردت في المواضع الآتية: [الإنسان: 5]، [الإنسان: 17]، [المطففين: 27].
(3) وردت في المواضع الآتية: [البقرة: 220]، [الأنعام: 146]، [التوبة: 102]، [يونس: 24]، [الكهف: 45]، [ص: 24].
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مزج).
(6) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5859.

إلا أنّنا إذا رجعنا إلى الاستعمال القرآنيِّ للّفظَين نلحظُ بعضَ الفروق بينهما، وهي:

أوّلاً: الزّينةُ أعمُّ منَ الزُّخرف، فكلّ نوعٍ من أنواع التَّحسين يُسمّى زينةً، أمّا الزُّخرف فهو حالةُ اكتمال الزّينةِ وتمامِها، وكأنَّ الزُّخرفَ هو الزّينةُ الظّاهرةُ بوضوحٍ، أوِ المبالَغُ فيها.

ثانيًا: كلّ زُخرفٍ هو زينةٌ، ولكنْ ليس كلُّ زينةٍ زُخرفًا.

الأرضُ الحصيدُ والخامِدةُ والهامِدةُ:

الأرضُ الهامِدةُ يابسةٌ ميّتةٌ لا حياةَ فيها والخامِدةُ قاحلةٌ جدباءُ، والحصيدُ مقطوعٌ زرْعُها

الحصيدُ والخامدةُ والهامدةُ بينهم تقاربٌ دَلاليّ؛ إذ يشتركون في معنًى عامٍّ، وهو القحطُ، وعدمُ وجود النَّباتِ على الأرض، ولكنْ من خلال الرّجوعِ إلى الأصل اللُّغويِّ لهذه الألفاظ، وإلى الاستعمال القرآنيِّ لها يتبيّنُ أنّ بينها فروقًا دقيقةً يمكنُ بيانُها كالآتي:

أوّلًا: من جهة الأصل اللُّغويِّ: الحصيدُ: أصل الحَصْد: قَطْعُ الشّيء، ومنه قَطْعُ الزّرع.

أمّا الخامدةُ: أصل الخُمود: سكونُ الحركة والسّقوطُ، ومنه خمدتِ النّار سكن لهبُها ولم يُطفأ جمرُها، وخمَدَ المريض: أُغمِيَ عليه، وقومٌ خامدون: لا تسمعُ لهم حِسًّا، وكأنَّ أصلَ الخمود هو انقطاعٌ للشّيء مع بقاء القُدرةِ على رجوعِه[1].

وأمّا الهامدةُ: أصلُ الهُمود: الموتُ والهلاكُ، ومنه همدتِ النّارُ: ذهب نارُها البتّةَ، أي أُطفئ لهبُها وجمرُها[2].

ثانيًا: من جهة الاستعمالِ القرآنيِّ: الأرضُ الحصيدُ: هي الأرض التي قُطع زرعُها من منابتِه بعد أنْ نضجَ، أوِ التي قُطع زرعُها على سبيل الإهلاكِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خمد).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 300، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (همد).

أمّا الخامدةُ: لم يردْ في القرآن الكريمِ وصفُ الأرض بالخامدة، وإنّما وُصف بها القومُ الذين أهلكَهمُ اللّه منَ الأمم السّابقةِ، وهي استعارةٌ عنِ النّار الخامدةِ التي أُطفئَ لهيبُها، وإذا وُصفتِ الأرضُ بالخامدةِ فيمكنُ أن تعني: الأرضَ الجدباءَ الشَّبيهةَ بالميّتةِ التي لا نباتَ فيها، ولكنّها مازالت قابلةً للنَّبات إذا أتاها المطرُ.

وأمّا الأرضُ الهامدةُ: وردت في موضعٍ واحدٍ في سياق بعثِ الموتى، وتعني الأرضَ الميّتةَ التي لا حياةَ فيها ولا نباتَ، إلّا أنَّ القادرَ على إحياء الموتى قادرٌ على إنباتها من جديد بعد إنزال المطرِ عليها.

وكأنَّ أكثرَ الأرض قحطًا وجدبًا هي الهامدةُ التي تكونُ يابسةً ميّتةً لا حياةَ فيها البتّةَ، ثمّ الخامدةُ التي تكون شبيهةً بالميّتة، ثم الحصيدُ التي قُطع زرعُها وأصبحَ حُطامًا.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»